يوسف عبدالله | نشر في ٢٦ فبراير ٢٠١٩,

5 عقود على ثورة أكتوبر السودانية.. هل يعيد التاريخ نفسه؟

شعب تنازعته الحكومات العسكرية زهاء الخمسين عامًا وما زالت، تخللتها ديمقراطيات لم يشئ لها أن تبلغ الحلم ثم توأد، ما إن ينطفئ عهد العسكر من سمائه لا ينفك حتى يعود بثوب آخر، أكثر من خمسة عقود أمضاها الشعب السوداني وهو متعطش لديمقراطية حقيقية تلبي طموحه وتروي ظمأه للحرية والانعتاق من قبضة العسكر.

شعب معلم ورائد، تعلم كيف يفك قيود سجنه ولا يستكين إلى خدر الخوف ورهبة العسكر، كلما أحكموا قبضهم عليه أراهم قوته وبطشه وأواهم صفحات التاريخ غير آبه بهم وبذكراهم ولكم في ثورة أكتوبر وانتفاضة أبريل خير برهان ودليل، وما زالت صفحات التاريخ لم تقفل ولم يرم شعبي المعلم القلم، فثمة شيء ما في خاطره يحاول أن يكتبه منذ زهاء الشهرين.

الإرث الثوري

كتب الأستاذ محمد المكي إبراهيم عن ذكرى ثورة الـ21 من أكتوبر بأنه ما إن تأتي ذكراها فتمتلئ أوداج السودانيين بالنخوة والحماس، ومن تحت رماد الهزائم يسطع نور الأحلام الكبيرة التي حملتها أجيال السودانيين ممن عاصروا تلك الهبة الشعبية الكبرى للإطاحة بحكم عسكري مستبد ثم من جاءوا بعدهم وعاشوا انتفاضة أبريل 1985 التي أطاحت هي الأخرى بحكم عسكري آخر.

من ينظر في تاريخ السودان يجد فيه مصداقًا على وجود تلك الدورات المتعاقبة والانتقالات من السكوت على الظلم إلى الثورة عليه

يحلو للسودانيين النظر إلى المناسبتين كنهج ثوري متصل يعبر تمام التعبير عن شعب السودان الذي يصبر ويصابر حتى يظن مضطهدوه أنه استسلم واستكان، وعند ذلك يهب كالإعصار فتنهار وتتهاوى أمام طوفانه الكاسح معاقل المستبدين، وتعبر الثورتان بجلاء تام عن توق السودانيين الأبدي إلى الديمقراطية وتعلقهم بها، ليس فقط كنظام عادل للحكم وإنما أيضًا كوسيلة لتحقيق إنسانيتهم كأفراد ورثوا حرية الرأي

والجهر به انطلاقًا من خلفيتهم البدوية ولم يتعودوا السير قرب الحائط منكسي الهامات.

ومن ينظر في تاريخ السودان يجد فيه مصداقًا على وجود تلك الدورات المتعاقبة والانتقالات من السكوت على الظلم إلى الثورة عليه، فقد كان ذلك شأن السودانيين في الثورة المهدية في أعقاب استبداد دام 60 عامًا وفي ثورة 1924 والقتال الباسل الذي خاضته قبائل الدينكا والنوير ضد الحكم البريطاني أول قدومه البلاد، كما كان ذلك شأنهم في ثورة الاستقلال وليكون ذلك شأنهم إلى أن تنطوي صفحة المستبدين والطغاة وينتشر نور الديمقراطية في الأنحاء.

بداية الشرارة

في أكتوبر 1964 تداعى طلاب كلية غردون – جامعة الخرطوم الآن – إلى ندوة سياسية قرروا عقدها في منطقة الثكنات أي في الداخليات التي تأوي القسط الأكبر من طلاب الجامعة، وكان في ذلك رسالة غاب فهمها على السلطات الأمنية لذلك الزمان، فقد كانت الندوة تقام في السكن الرسمي لغالبية طلاب الجامعة أي في الموئل الذي يفزع إليه أولئك الطلاب إذا اصطدموا بالسلطات في شوارع الخرطوم أو في الحرم الجامعي حول الكليات.

أما إذا أقيمت الندوة في المنطقة التي يسكنها الطلاب فذلك يعني أنه لم يعد لأولئك الطلاب من خيار سوى المقاومة المستميتة دفاعًا عن ملاذهم الأخير، وفي ذلك وجه شبه بالقطة الأسطورية التي تلجأ للهجوم متى أغلقت بوجهها الأبواب وأظلمت الغرف، وهو بالضبط ما حدث في تلك الليلة التاريخية، فبعد افتتاح الندوة بدقيقة أو دقيقتين انطلقت مكبرات الصوت بأيدي قوات الشرطة تطلب من الطلاب فض الندوة والتفرق ولم تفكر الشرطة إلى أين يكون ذلك التفرق، فالطلاب في منطقة سكنهم وليس لهم من مأوى ولا سكن سواها وليس لهم من ملاذ غيرها.

بعد ما يقرب من الساعتين انجلت المعركة عن طلاب جرحى وعن أول شهيد لحركة الطلاب السودانيين، الشهيد القرشي الذي أردته رصاصة غادرة وهو يقف مع رفاقه في الصفوف الأمامية بمواجهة الشرطة

يبدو أن تلك المعاني كانت واضحة في ذهن ممثل اتحاد الطلاب المكلف بإدارة الندوة، فقد رد على تلك النداءات بهدوء طالبًا من الحضور التشبث بأماكنهم والاستمرار في الندوة، وعند ذلك انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة وانهمرت الغازات المسيلة للدموع، وفي الظلام الذي ساد المكان فقدت قوات الأمن تفوقها وانهالت عليها حجارة الطلاب وبدلاً من الهرب من وجه قوات الأمن وجد الطلاب أنفسهم ملتحمين بتلك القوات في صراع رجل لرجل، وحين لجأت الشرطة إلى إطلاق الرصاص كان ذلك بمثابة صيحة اليأس الأخيرة فلم يعد أمام الطلاب مناصًا سوى الاستبسال في المقاومة حتى النهاية وما بعد النهاية.

بعد ما يقرب من الساعتين انجلت المعركة عن طلاب جرحى وعن أول شهيد لحركة الطلاب السودانيين، الشهيد القرشي، الذي أردته رصاصة غادرة وهو يقف مع رفاقه في الصفوف الأمامية بمواجهة الشرطة، لقد استشهد معه وبعده كثير من الشباب ذلك المساء وما بعد ذلك المساء ولكنه أخذ الاسم بتعبيرنا السوداني، فقد كان أول رعيل الشهداء وقائدهم إلى جنات الخلود وتحت صورته المأخوذة عن الكارنيه الجامعي سارت مواكب الثورة إلى نصرها النهائي.

في الميدان الكبير وقفت شاحنة كبيرة (لوري) عليها الجثمان وكان في قمتها الدكتور الترابي والدكتور حسن عمر، وتولى الدكتور الترابي الجانب الديني في مقتل القرشي منهيًا حديثه برجاء للحضور بالتزام الهدوء، بينما تناول الدكتور حسن عمر منه الميكرفون وقال كلامًا مناقضًا لفكرة التزام الهدوء، وبالفعل لم تكد تنتهي تلك المراسم حتى قام الجمهور بقلب سيارتين من سيارات الشرطة وإشعال النار فيهما، وعلى إثر

ذلك انطلقت من نفس الميدان أولى المظاهرات الأكتوبرية التي كان مقدرًا لها أن تسقط النظام العسكري في أقل من أسبوع.

تشابه الوقائع

بعد خطاب الرئيس السوداني عمر البشير الذي أعلن خلاله حل حكومته وتخليه عن رئاسة حزب المؤتمر الوطني وفرض حالة من الطوارئ على البلاد لمدة عام في محاولة لتكوين حكومة انتقالية إلى حين موعد الانتخابات العامة في 2020، لتسكين الاحتجاجات التي تدعو لتنحيه لأكثر من شهرين، ظنًا منه أن هذه القرارات سوف تساعد على تهدئة الأوضاع في الشارع العام، بينما غاب عنه أن الشعب لا يثق في حكومة هو على رأسها ولا يثق في جهاز أمنه، ولن يهدأ الشارع إلا بمغادرته السلطة وحل جهاز الأمن وهذه من المطالب التي لا يتخلى عنها الثوار وقادتهم.

طالبت الجماهير في أحداث ثورة أكتوبر بالهتاف المدوي بإعلان الإضراب السياسي والعصيان المدني وهو المطلب الذي تلتف حوله الجماهير الآن كتصعيد لوتيرة الاحتجاجات

وكأن التاريخ يعيد نفسه، فخطى هذه الاحتجاجات تسير على نهج ثورة أكتوبر، ومن أوجه التشابه هذه أنه في ثورة أكتوبر في الـ22 من أكتوبر 1964 أي صبيحة اليوم التالي لمقتل الشهيد القرشي تواصلت المظاهرات في أحياء العاصمة وانتشرت في باقي مدن السودان منها مدني وعطبرة وبورتسودان وكوستي وغيرها من المدن وهو ما يحدث الآن بالضبط، حيث بدأت الثورة في مدينة عطبرة وانتقلت لباقي المدن السودانية، واتفقت النقابات المهنية خلال اجتماعها على رفع مذكرة للرئيس عبود تدعوه للتنحي، وهو أيضًا ما يجسده الحاضر الآن وهو اتفاق ذات النقابات الآن ومحاولاتها اليومية للوصول للقصر الرئاسي لرفع مذكرة تدعو الرئيس السوداني الحاليّ عمر البشير للتنحي، إلا أن الترسانة الأمنية حالت دون وصول مواكب المهنيين مرات عديدة آخرها كان في الـ21 من فبراير 2018.

طالبت الجماهير في أحداث ثورة أكتوبر بالهتاف المدوي بإعلان الإضراب السياسي والعصيان المدني وهو المطلب الذي تلتف حوله الجماهير الآن كتصعيد لوتيرة الاحتجاجات.

الجدير بالذكر أنه مع إعلان حالة الطوارئ خرجت جموع من المواطنين في مظاهرات ليلية بعدد من أحياء العاصمة تعبيرًا عن رفضها لما قدمه الرئيس من تنازلات وتحديها لحالة الطوارئ، وهنا تتشابه الأحداث أيضًا حينما أصدر السيد محمد أحمد عروة وزير الداخلية إبان عهد عبود حظر التجوال وهدد بإطلاق النار على من يخالف الأوامر، وسخر المواطنون من الحظر ولم يلتزموا به وخرجوا في مظاهرات حاشدة إلى أن ظفروا بالنصر المبين، وهذا ما يحدث الآن، إذ إن جموع المتظاهرين لم يردعها القتل ولا التنكيل في المعتقلات ولا إعلان الطوارئ.

من الأحداث الراهنة التي تقود الذاكرة إلى ثورة أكتوبر، تمرد بعض الضباط سواء كان ذلك في الجيش أم الشرطة على قياداتها

ونجد أن التجمعات الحزبية التي تنادي بإسقاط النظام تمثل فئة كبيرة من المجتمع السوداني وخصوصًا الشباب، فالصحوة التعليمية والفكرية أضحت خطرًا على التنظيمات والأحزاب التقليدية التي لا تسمح بالسير إلا على خطى القدماء وتعيش حالة من التناقض الفكري الواضح، حيث إنها تريد معالجة مشاكل اليوم بفكر الأمس وهو المستحيل بعينه لا سيما تأطيرها لمساحات الحرية الفكرية لمنسوبيها في حدود المخطوطات القديمة التي لا يسمح بتجاوزها إلا في حدود لا تطمس هوية الفكرة الأساسية، وهذا ما جعل الكثير من الشباب يميل إلى التنظيمات السياسية التي تحترم فيه حريته الفكرية ولا تحد مسار فكره وتعينه لابتكار حلول لمشاكله السياسية وفقًا لمقدراته وإمكاناته.

وكما دعت تلك الأحزاب التقليدية عندما كانت في أوج مجدها وتحكمها بالشارع السياسي السوداني في

اجتماعاتها بإسقاط نظام عبود وأعلنت الإضراب السياسي، ها هي الأحداث تتشابه في هذا العهد بدعوة الأحزاب السياسية الحديثة المتحكمة في قرارات الشارع بإسقاط النظام وتمهد لإعلان الإضراب السياسي العام.

ومن الأحداث الراهنة التي تقود الذاكرة إلى ثورة أكتوبر، تمرد بعض الضباط سواء كان ذلك في الجيش أم الشرطة على قياداتها نظرًا للطريقة التي تتعامل بها القوات النظامية مع المحتجين من ضرب بالرصاص الحي والتنكيل بهم في المعتقلات، وهو كما الانقسام الذي حدث داخل القوات المسلحة يوم الإثنين الموافق 26 من أكتوبر 1964 وقاده بعض الضباط الذين أعلنوا انحيازهم للثورة، ودور أساتذة الجامعات في إنجاح ثورة أكتوبر وعلى رأس تلك الجامعات جامعة الخرطوم التي انطلقت منها شرارة الثورة وقيادتهم لمظاهرة حاشدة من ناديهم في 26 من أكتوبر 1964 نحو القصر وكان شعارها "إلى القصر حتى النصر" وهو نفس الدور الطليعي الذي يقوم به أساتذة جامعة الخرطوم في ثورة الـ19من ديسمبر 2018، حيث قدموا العديد من الوقفات الاحتجاجية والمخاطبات السياسية المطالبة بإسقاط النظام كما قدموا ورقة تمثل وجهه نظرهم في حل الإشكال السياسي الذي يواجه البلاد في هذه الفترة الصعبة التي تمر بها.

إن تشابة الأحداث في الساحة السياسية السودانية مع أحداث ثورة أكتوبر لهو مؤشر قوي على بداية النصر للثورة السودانية الظافرة والتفاف نفس النقابات والأحزاب السياسية التي كان لها دور طليعي في إنجاح ثورة أكتوبر حول الشباب المحتج يمثل أول بداية النصر وعرش الحكومة بدأ في الاهتزاز، وأن الحزب الحاكم بدأ في التفكك منذ إعلان الرئيس الخروج منه ليكون على مسافة واحدة من كل الأحزاب السياسية في محاولة منه لإيجاد مساحة قبول داخل أروقة التنظيمات التي تقود الاحتجاجات، وعلامات الانهيار في حزب المؤتمر الوطني هو إقالة كل رؤساء التنظيم بالولايات وتأجيل موعد إقامة مؤتمرهم العام الذي كان من المقرر إقامته في أبريل القادم.

وثمة اتجاه برز داخل الحزب بأن يتم تغيير اسمه في محاولة لتغيير الجلد، ومن المتوقع التحاق بعض مدنيي الحزب بالمؤسسة العسكرية والانخراط في العمل معها تعبيرًا عن رضاهم على قرار الرئيس الأخير بتكوينه حكومة عسكرية ووقوف البعض الآخر على الرصيف وانتظار لمن تكون الغلبة والالتحاق به، وليس من المستبعد في حال نجاح الثورة أن يكون مصير حزب المؤتمر الوطني كمصير حزب الاتحاد الاشتراكي الحاضنة السياسية للرئيس السابق نميري بعد نجاح انتفاضة مارس/أبريل لعام 1984 التي أفضت إلى إقالة الرئيس جعفر نميري والأيام بيننا.

رابط المقال: https://www.noonpost.com/26731/